

بسم الله الرحمن الرحيم

تطدير

دفرسوار

للدكتور إبراهيم أنيس

الاسم « دفرسوار » فجأة في أثناء معركة رمضان ، وأصبح على كل لسان في تلك الأيام المريعة ، مرتبطا - ويا لسخريه القدر - باسم البحيرات المرة !!



وجذبني الاسم بوصفي لغويا جذبا قويا ، لغرابته أولا ، ولما يوحى به جرسه من صلة وثيقة باللغة الفرنسية ، لغة « ديليسيس » المهندس الفرنسي الذي خطط لمشروع قناة السويس ، وتولى تنفيذها مستغلا في ذلك عرق العمال المصريين ودماءهم !!

وشرعت أتساءل عن تأصيل الاسم « دفرسوار » الذي ظل وحده بين أسماء منطقة القنال ، يحتفظ بتلك المسحة أو السحنة الأجنبية عنا !!

وبرغم ما كنت أعرفه عن الطريق الشائك الذي تحفّ به كل دراسة تعرض تفاصيل الأسماء أو الأعلام ، فهي دراسة جذابة جدا ، شائقة جدا ، تشدّ نحوها كثيرا من الباحثين في اللغة شدا عنيفا فكأنها قوة مغناطيسية لا يستطيع معها فكاكاً ، ولكنها مع ذلك محفوفة بالمزالق ومواضع الزلل .

وتذكرت ما قام به أحد علماء العربية في أوائل القرن الرابع من الهجزة هو ابن دريد في كتاب له مشهور «الاشتقاق» ، وحاول فيه تأصيل الأعلام في شبه الجزيرة العربية من أسماء القبائل والأمكنة ، فأسرف على نفسه وعلينا ، وجاءنا بقدر كبير من الحُدس والتخمين ، وبأصول ما أنزل الله بها من سلطان ، أصول لا يملك الباحث الحديث إزاعتها إلا أن يبتسم أو يسخر لسذاجتها وما فيها من تكلف وتعنّت !!

وتذكرت كذلك تجربة سرت أمامي في أثناء دراستي بلندن ، حين وفد إلى أستاذنا هناك طالب ياباني ، وقد بلغ به الحماس مبلغه إلى البحث فيما أسماه : الكشف عن الكلمات الإنجليزية التي دخلت اللغة اليابانية !!

وظل يعمل شهورا عسى أن يعود بتلك الكلمات إلى أصولها من حيث الأصوات أي «فوناتيكيا» ، ومن حيث الدلالة أي «سمانتيكيا» ، ثم ظهر بعد الجهد المضني أن الكلمات التي حسبها إنجليزية الأصل ليست إلا كلمات يابانية التقطها بعض البحارة الإنجليز في سنين طويلة من شواطئ اليابان ، ثم «جلنزوها» أي خلعوا عليها صبغة إنجليزية أفقدتها كثيرا من معالمها الأصلية ، فلما عادت تلك الكلمات إلى اليابان في أفواه البحارة الإنجليز ، وفي صورتها الجديدة ، أنكرها أهلها ، ولم يتعرفوا عليها ، وظنّها الطالب الياباني إنجليزية الأصل . وهكذا ردت إلى اليابان بضاعتها . وكان أستاذنا حينئذ يحذرننا من عملية تأصيل الأعلام ، وينصحننا بأن نلتزم طريقنا معها على مهل ، ومع قدر كبير من الحيطة والتريث ، وطول التأمل والتفكير . أقول : برغم كل ذلك وجدتني لا أستطيع الفكّك من أسر الاسم «دفرسوار» وسحره ، وبدأت أفكر في محاولة لتأصيله .

وكان عليّ في هذه المحاولة أن ألجأ إلى بعض المشهور من المعاجم التاريخية للغة الفرنسية ، وإلى وثائق التاريخ الحديث ، ثم ربما فوق هذا وذاك ، إلى بعض من كتبوا عن جغرافيه هذه المنطقة . فشهدت عجبا !!

فقد ظهر أولاً من الخرائط التي رسمها « ديليسبس » للمنطقة قبل حفر القناة ،
وهي الخرائط المحفوظة بمكتبة جامعة القاهرة ، والمنشورة تحت عنوان :
Per cement de l'isthme de Suez

أن « ديليسبس » نفسه قد كتب في مكان جنوبي « السرابيوم » ، الكلمة
الفرنسية Réservoir ، وهو المكان المعروف الآن بالاسم « دفرسوار » !!

وظهر كذلك من كتاب ألفه المهندس فؤاد فرج عن منطقة القنال ومدنها^(١)
ما نصه :

« وكانت البحيرات المرة قبل حفر القناة عبارة عن مستنقع منخفض حول قاعه
غابة كثيفة من شجر الأثل اسمها العمبق » .

!!! وبالرجوع إلى المعجم العربي المشهور لسان العرب ، اتضح لنا مع الدهشة
والاستغراب أن « العمبق » في أغلب الظن من الكلمة العربية « العنبقة » بمعنى
مجتمع الماء والطين !! ولا حاجة بنا هنا إلى التذكير بأن النون الساكنة التي بعدها
« باء » تسمع في آذاننا نحن أبناء العربية « ميا » .

نحن إذن إزاء منطقة عرفت قبل حفر القنال ، بأنها منطقة مستنقعات وبرك ،
واستغلت في فتح القتال كمستودع يملأ بالمياه وقت المد فيساعد على الملاحة ،
أو كما يعبر المهندس فؤاد فرج في كتابه بما نصه :^(٢)

«وجود البحيرات المرة في طريق المشروع يجعل منها حوضاً طبيعياً مساحته
٢٨٠ مليون متر مربع اتسع عند ارتفاع المد بمقدار مترين في البحر الأحمر ،
٥٦٠ مليون متر مكعب من الماء . وهذه تساعد الملاحة بشكل واضح لارتفاعها فوق
منسوب مياه البحر الأبيض المتوسط » .

(١) المجلد الثاني ص ٢٥ (٢) ص ٢٠٦ .

ثم رجعنا إلى المعجم التاريخي الفرنسي (معجم روبير) للبحث عن دلالة كلمتين هما :

- (١) Réservoir وهي التي وجدت في خرائط « ديليسبس » .
(٢) Déversoir وهي الكلمة التي قفزت إلى الذهن لأول وهلة ، وتبين لنا أن هذا المعجم يذكر بين معاني الكلمة الأولى معنى « بركة أو مستنقع » ، ويذكر أن من معاني الكلمة الأخرى « منفذ تنصب من كمية ضخمة من المياه التي في قناة أو بركة » .

ويشير المعجم إلى أن بدء استعمال الأولى في اللغة الفرنسية هو منتصف القرن السادس عشر ، وأما الكلمة الأخرى فلم تعرف في الفرنسية إلا في منتصف القرن الثامن عشر ! !

ووقفنا إزاء كل هذه المعلومات حائرين نتساءل : أي الكلمتين هو الأصل الأصيل للاسم دفرسوار ؟ ! ولم نجد مناصا من أن نفترض أحد فرضين :

أولهما : أن نختصر طريق البحث فنقول إن الكلمة Déversoir هي الأصل ، ولم يتغير منها إلا حرف ال (V) الذي لا تعرفه العربية ، فأصبح فاء ، وإلا تعديل طفيف في نظام المقاطع ، لأن المقطع (Vers) لا يقع أبدا في وسط الكلمة العربية . فلما عدلت المقاطع إلى ما يتفق مع مقاطع لغتنا العربية أصبح المقطع الأول « دِفْ » ، والثاني « رِسْ » ! ! غير أننا ترددنا قليلا في قبول هذا الفرض ، لما شاهدناه في الخرائط من أن موقع مدينة الإسماعيلية يشبه تمام الشبه موقع المكان المعروف باسم « دفرسوار » ، فالأولى في الطرف الشمالي الغربي من بحيرة التمساح ، والدفرسوار في الطرف الشمالي الغربي من البحيرات المرة . ومع ذلك لم يطلق الاسم « دفرسوار » إلا على المكان الخالي ! ! هذا إلى أن المعجم الفرنسي لم يشر بين أمثاله - على غير ما كان متوقعا - إلى الكلمة Déversoir كمكان محدد في القنال ، مع أن الكلمة قد عرفت في اللغة الفرنسية قبل فتح القنال بنحو قرن من الزمان ! !

ثانيهما : وأما الفرض الثاني ففي رأي أنه أكثر احتمالا ، لأنه يعتمد أساساً على ما يشاهد في خرائط «ديليسبس» ، ثم على ما وصفت به الطبيعة الجغرافية لهذه المنطقة قبل فتح القنال وبعد فتحها من أنها منطقة مستنقعات وبرك .

ويستحتم لذلك أن نقول إن الموضع الذي كتب عليه في خرائط ديليسبس كلمة Réservoir قد ظهر لمهندسيه ومساعديه في أثناء الحفر أنه موقع فيه بعض البرك والمستنقعات ، فاتخذوها بمثابة مستودعات للمياه ، وأطلقوا عليها التعبير الفرنسي Des Réservoirs (دِرِسْرِفُوار) !! ومن هنا جاء الاسم المؤلف لنا الآن !!

وعلى أساس هذا الفرض يمكن أن نوضح كيف أن « دِرِسْرِفُوار » قد صارت « دِفْرِسُوار » . وهنا أقرر مطمئناً أن الناطق العربي يعتمد عادة إلى اختزال بعض مقاطع الكلمات المسرفة الطول ، فيسقط منها ما لا يخلّ بالمعالم الأصلية ، وكان ذلك يحذف المقطع الرائي الأول . فأصبحت الكلمة (دِسْرِفُوار) ثم حدث تعديل طفيف في المقاطع وأصبح لدينا جذر رباعي في أول الكلمة و « دِسْرِف » . وعن طريق تلك الظاهرة التي عرفت قديماً باسم القلب المكاني ، ولدى الأوربيين باسم metathesis تغير ترتيب الحروف وأصبح الجذر الرباعي « دِسْرِف » على صورة « دِفْرِس » وبقي المقطع الأخير للكلمة الأصلية وهو « وَاَرْ » كما هو في كل الحالات!

وأما السرّ في حدوث ذلك القلب المكاني في ترتيب الحروف فنعرّوه في دراستنا الحديثة إلى اختلاف نسبة الشيوع بين السلاسل الصوتية في جذور لغتنا العربية . وقد دلتنا على ذلك إحصاءات الحاسب الإلكتروني في دراسة إحصائية حديثة لجذور لغتنا العربية مؤسّسة على أشهر المعاجم العربية القديمة . ونتخذ نحن اللغويين هذه الإحصاءات الآن بمثابة المسطرة الحاسبة للمهندسين !!

وبالرجوع إلى هذه الإحصاءات تبين لنا أن السلسلة الصوتية « دِسْرِف » أقل شيوعاً ، وبشكل واضح من السلسلة الصوتية (دِفْرِس) .

ولا عجب إذن أن السلسلة الصوتية الثابتة تسبق إلى اللسان العربي حين يحاول
النطق بالسلسلة الأولى ، ومن هنا جاء الاسم « دِفْرِسوار » !!

وليس مثل هذا الفرض بآ كثر غرابة حين يقارن بما نعرفه عن المراحل المعقدة
التي مرت بها بعض الأسماء والأعلام على ألسنة الجماهير فيما مضى . ويكفى هنا أن
نتذكر أن مدينة « حلب » قد أصبحت في ألسنة الأوربيين « أَلَبُو » !! وأنا
كنا في عهد قريب نسمع القاهريين يتحدثون عن « الأورُنُس » في العباسية ويريدون
به الكلمة الإنجليزية ordnanc !! وربما من ذلك أيضا أن التعبير الإنجليزي
Work - shop قد أصبح في ألسنة المصريين « ورشة » .

وبعد : فلست أهدف من وراء هذا التأميل إلا إلى تفجير المشكلة لعلّ هناك
من يهديننا إلى ما لم يكن قد اهتدينا إليه ،

وبالله التوفيق

مايو ١٩٧٤

المشرف على المجلة
ابراهيم أنيس

